من تراب الطريق! (١٦٩) هل تتفطن الثروة ؟! (*)

كلما عدت إلى كتابات يحيى حقى، أدركت كم كان هذا الأديب فذا من عملة نادرة .. عدسته لامّة قادرة على تجميع الشذرات وتقديم اللمع الوامضة التى تلفتك إلى ما يمر على الكثيرين مر الكرام !

عن " الحمارة الزرقاء " تلتقط كاميرا يحيى حقى نوعا من الإعلانات التى كانت تنشر إبان الحكم المملوكى عن بيوع بالمزاد العلنى لحمارة الفلاح أو طسته أو محصوله اليسير وفاء بحق دايرة فلان باشا الفلانى . الحمارة الزرقاء عنوان متكرر فى بيوع المزاد، يقول يحيى حقى إنه قرأ عنها مرارا قبل أن يتشرف بمعرفتها ولقائها وجها لوجه . الإعلان عنها كان مختصرا من خمس كلمات : " حمارة زرقاء سن عشر سنوات "، وأحيانا يكون الإعلان من ست كلمات إذا بالغ المزايد فى بيان البضاعة، فيضيف مثلاً أنها " عرجاء " ! أو أنها سوف تباع بالمزاد مع طشت صفيح وثلاث كيلات ذرة، سدادا لمبلغ (١٢) جنيها وبضعة مليمات . كان المليم لا يزال معروفا متداولا فى ذاك الأوان، وكانت هذه عينة من إعلانات بيوع ممتلكات الفلاحين - وكم كانت زهيدة ! - بالمزاد وفاءً بمديونيات أصحاب الملك والدوابر والأبعاديات ! .. وأحيانا بناء على طلب الخاصة الخديوية، أو الخاصة السلطانية !

يروى يحيى حقى كيف دخل حسين رشدى باشا رئيس الوزراء على السلطان حسين المتسمى بلقب " أبو الفلاحين "، وكان بينهما وقرينتيهما

(*) المال ٢٠٠٨/١١/٢٦

صداقة ومودة، ليفرد أمامه صحيفة ورد بها اسم الخاصة السلطانية، ويشير إلى الإعلان ويقول عاتبا : " عيب يا مولانا " !

ولكن ما هو العيب ؟! .. العيب الذى قصده رئيس الوزراء لم يكن إلا عن النشر ! أن يقرأ الناس أن الخاصة السلطانية تبيع متاع ومؤونة فلاح مسكين من أجل (١٢) جنيها و (٢٥) مليما ! تلاحقه الخاصة ملاحقة الكلاب السلوقى حتى تصرعه فى سوق البلدة !

للذين انطلقوا الآن فى ردة التباكى على عهد الملكية، أهديهم من كلمات يحيى حقى : " وقد بلغ نشاط الإدارة فى خدمة أرض الجالس على العرش ذروته فى عهد فؤاد وفاروق . وسألت مرة فلاحا عن أعز أمنية له، فقال لشدة دهشتى : "أن لا تشترى الخاصة الملكية أرضا فى بلدنا "!

ترى هل اقتصرت الردة على التباكى على الملكية ؟! . لقد انقض الثراء بشدة على الأراضى هنا وهناك، ولكنها أرض من نوع آخر يجرى فيها التسقيع على الواسع بعد الشراء بأبخس الأثمان، فتتكون من حصيلة الشراء الحرام من ممتلكات الدولة، والبيع الحرام بمئات الملايين، ثروات هائلة تهون أمامها أبعاديات الأمس ! ..على الأقل كان هناك من يستطيع أن يقول : "عيب" فلا يُلاحق ولا يُصادر ولا يُحاصر !

لقد تغولت الثورة وترعرعت فى بر مصر، واستشرى وتفشى فيها الفقر والفقراء ! ومن الغريب اللافت أن الثروة لا تتفطن للخطر القادم من الفقر والإملاق ! لو تفطنت الثروة للغضب المنحبس فى الصدور، لاعتدلت وارعوت قبل أن يأتى طوفان لن يميز بين الغنى والفقير !!!